مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 27 عدد: 4 (رت 73) السنة: 2023

مكوّنات الفعل القرائي وأثرها في صناعة القول الحجاجي وإنتاجه

في ظلال القرآن لسيد قطب أنموذجا

The Components act of reading and effect In the manufacture of controversy production"Fi dilal el Quran of Sayed Quottob" "Sample"

د. بهلول شعبان [1]
جامعة سعيدة- الدكتور مولاي الطاهر- الجزائر
chaabanedahabi@gmail.com

تاريخ الوصول 2021/11/05 القبول 2023/02/18 النشر على الخط 2023/06/05
Received 05/11/2021 Accepted 18/02/2023 Published online 05/06/2023

ملخص:

يعرض هذا المقال بعض المكونات النصية التي قارب بها المؤلف النص القرآني، فالتقى على أساس هذه المقاربة نص القارئ الحركي العملي والفكري ببعديهما الاستراتيجي؛ الواقعي والتأويلي، تلك القراءة التي استندت في منهجها إلى حركة الواقع ورصد إيحاءات التلقي، فنتج عن هذا اللقاء نص إبداعي بمواصفات أدبية وفكرية وتجربة روحية، إذا انتقل فيها الدارس من تفسير النص القائم على الشرح اللغوي وإيضاح المعنى إلى الترجمة الدلالية بأبعادها الظلالية، تلك التي استهدفت الاستجابة والتأثير والفاعلية وتجديد المفاهيم والمصطلحات في ظل حركة تواصلية تنزاح بالفعل القرائي نحو عمليات التلقي والتأويل، والتأثير والبناء.

الكلمات المفتاحية: القرآن- النص - المكون- القارئ- التأويل.

Abstract:

This article studies some of the textual components in which the author approached it with the Qur'anic text, On the basis of this approach, text of reader kinetic and intellectual met with its strategic dimension, realistic and interpretive, that reading was based in its method on reality and monitoring of the receive so this meeting resulted in an innovative text with literary and intellectual specifications, and a high spiritual experience The researcher moved from interpreting the text based on the linguistic explanation and clarifying the meaning to the semantic translation with its shadow dimensions that targeted the response, influence, effectiveness and renewal of concepts and terminology In the presence of communication kinetics which approach the reading act to the reception of the interpretative, structural and affective.

Keywords: Quran - text - component - reader – interpretation.

[1] المؤلّف المراسل: **د.بهلول شعبان** البريد الإلكتروني: **chaabanedahabi@gmail.com**

1. مقدمة:

إن الهدف من هذا المقال أنه يعرض إحدى القراءات المعاصرة للنص القرآني، تلك القراءة التي حاول على أساسها صاحب الظلال سيد قطب مقاربة الكتاب المعجز باستثمار ثقافته الواسعة وبتوسل كثير من المكونات القرائية التي تنوعت بتأثير من التقاطعات العلمية والأدبية والنقدية، بالإضافة إلى فعل المثاقفة لتحقيق ذلك الطموح الذي ارتسمت معالمه واتضحت خطوطه في مرحلة النضج الفكري، والهدى الرباني، وهو يتوجه بإهدائه إلى الخواص والعامة من القرّاء فيؤسس من خلاله عقدا قرائيا، وميثاقا دراسيا مع كتاب الله- عز وجل- أولا، ومع القرّاء ثانيا؛ "إليك يا أماه ثمرة توجيهك الطويل. لطفلك الصغير، ولفتاك الكبير. ولئن كان قد فاته جمال الترتيل، فعسى ألا يكون قد فاته جمال التأويل. والله يرعاك عنده ويرعاه"[1]، إذ يجتمع في هذا الإهداء الذي يمثل عتبة مناصيه هامة؛ الفعل التأويلي والوصف الجمالي، ومن هنا تطرح مسألة التأويل؛ بنية ومنهجا قرائيا وسياقا تأطيريا عند سيد قطب وهو يتلقى النص القرآني، وفي نفس الوقت يؤسس لجمال الفعل القرائي وجمال الاستجابة، من خلال مكونات قرائية حجاجية منها؛ الجمالي، والعمل الحركي والفكري والنقدي والتأثيري والسيكولوجي والإيصالي..

أما فكرة البحث جاءت لتقدم هذه المكونات القرائية التي تمثل نصوص القارئ وتكشف عن آلياتها، تلك التي ساهمت في إنتاج الخطاب الظلالي بأبعاد ظلالية وإيحائية وبتوسل الترجمة الدلالية -كما وصفها هو نفسه في تقديمه لسورة الرعد- بقوله: " كثيرا ما أقف أمام النصوص القرآنية وقفة المتهيب أن أمسها بأسلوبي البشري القاصر؛ المتحرج أن أشوبها بتعبيري البشري الفاني! وهذه السورة كلها- شأنها شأن سورة الأنعام من قبلها- من بين هذه النصوص التي لا أكاد أجرؤ على مسها بتفسير أو إيضاح. ولكن ماذا أصنع ونحن في جيل لا بد أن يقدم له القرآن مع الكثير من الإيضاح لطبيعته ولمنهجه ولموضوعه كذلك ووجهته. بعد ما ابتعد الناس عن الجو الذي أنزل فيه القرآن. وعن الاهتمامات والأهداف التي تنزل لها، وبعد ما انماعت وذبلت في حسهم وتصورهم مدلولاتهم وأبعادها الحقيقية، وبعدما انحرفت في حسهم مصطلحاته عن معانيها.. وهم يعيشون في جاهلية كالتي نزل القرآن ليواجهها، بينما هم لا يتحركون بهذا القرآن في مواجهة الجاهلية كما كان الذين تنزل عليهم القرآن أول مرة يتحركون.. وبدون هذه الحركة لم يعد الناس يدركون من أسرار هذا القرآن شيئا. فهذا القرآن لا يدرك أسراره قاعد، ولا يعلم مدلولاته إلا إنسان يؤمن به ويتحرك به في وجه الجاهلية لتحقيق مدلوله ووجهته. ومع هذا كله تصيبني رهبة ورعشة كلما تصديت للترجمة عن هذا القرآن"[2]، وهذه الترجمة الدلالية والمفاهيمية والاصطلاحية تحتاج إلى أدوات قرائية نصية هي ما اصطلحنا عليه بمكونات نصوص الفعل القرائي.

لقد استخدم المؤلف في هذه المقاربة كثيرا من الآليات الإقناعية، ولذلك فقد أصبح المكون مهما كانت طبيعته نصا ضروريا ومفتاحا لولوج عالم القرآن ومدخلا لهذه القراءة وحقلا مناسبا لإنتاج المعنى، بالإضافة إلى المداخل التي انفتحت لهذا القارئ الأديب لتمكين القرّاء من الوصول إلى النص القرآني بسلوك المداخل الأدبية والجمالية والفنية والفكرية والعلمية، وقد أبرز المؤلف أثر المكون الحركي وفاعلية التلقي بعد تشخيص حال الأمة المتراجع بقرون، وبتوظيف الحقيقة التاريخية الواقعة كنموذج مشهود، وبمثابة النص الحجاجي الإقناعي الذي يستمد روحه وشرعيته من التاريخ بقوله: "وإنني لأدرك الآن — بعمق- حقيقة الفارق بين جيلنا الذي

---

[1]- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ط16، دار الشروق، (1423هـ/ 2002م)، ص: 05.

[2] سيد قطب في ظلال القرآن، ج1، طبعة جديدة مشروعة، تتضمن إضافات وتنقيحات تركها المؤلف وتنشر للمرة الأولى، الطبع الشرعية11، 1405هـ /1985م : ص:2038

نعيش فيه والجيل الذي تلقى مباشرة هذا القرآن. لقد كانوا يخاطبون بهذا القرآن مباشرة؛ ويتلقون إيقاعه في حسهم، وصوره وظلاله، وإيحاءاته، وإيماءاته، وينفعلون بها انفعالا مباشرا، ويستجيبون له استجابة مباشرة. وهم يتحركون به في وجه الجاهلية لتحقيق مدلولاته في تصورهم. ومن ثم كانوا يحققون في حياة البشر القصيرة تلك الخوارق التي حققوها، بالانقلاب المطلق الذي تم في قلوبهم ومشاعرهم وحياتهم، ثم بالانقلاب الذي حققوه في الحياة من حولهم، وفي أقدار العالم كله يومذاك، وفي خط سير التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. لقد كانوا ينهلون مباشرة من معين هذا القرآن بلا وساطة، ويتأثرون بإيقاعه في حسهم فما لأذن. وينضجون بحرارته وإشعاعه وإيحائه؛ ويتكيفون بعد ذلك وفق حقائقه وقيمه وتصوراته".[1]

لقد شكل الخطاب الظلالي ملتقى بين المؤلف سيد قطب والقرّاء، إذ يقوم هذا النص بوظيفة تواصلية استخدم فيها الكاتب كل ما استطاع من آليات الحجاج والترجمة الدلالية ووسائل الإقناع الفكرية والحركية والواقعية والأبعاد القصدية مع استثمار التراث النقدي العربي والغربي، ولقد كرّر مررا أنّ نص الظلال ما هو إلا جسر يعبر منه القراء إلى عالم القرآن وبتفعيل هذه المكونات النصية، فقد جاء في قوله: "وإنني لأهيب بقراء هذه الظلال، ألا تكون هي هدفهم من الكتاب، إنما يقرؤونها ليدنوا من القرآن ذاته، ثم ليتناولوه عند ذلك في حقيقته، ويطرحوا عنهم الظلال. وهم لن يتناولوه في حقيقته إلا إذا وقفوا حياتهم كلها على تحقيق مدلولاته وعلى خوض المعركة مع الجاهلية باسمه وتحت رايته"[2]، وبهذا التواضع والاعتراف فقد أصبح الظلال رسالة لغوية ذات أبعاد تداولية في ارتباطها بشروط الفعل القرائي السياقي التأويلي، فالخطاب الظلالي قائم على الحجاج الإقناعي؛ الفكري والواقعي والتاريخي، ولذلك فقد اجتمعت فيه الكثير من المناصات المنتجة.

يأتي هذه المقال ليقف على إشكالية طبيعة الآليات الحجاجية وقيمتها في محاورة القارئ المتعدّد، فما درجة وحدود التأويلات في النص الظلالي؟ ما طبيعة المكونات القرائية والكفاءات اللغوية في تثبيت هذا الفكر المتجدد في مواجهة طبيعة المرحلة القائمة على التدافع بين الإيديولوجيات التي أنتجها الفكر البشري المعاصر؟ ما طبيعة محمول الخطاب الظلالي؟ ماهي المكونات القرائية لهذا المؤلف التي قارب بها النص القرآني؟ وباعتبار الخطاب الظلالي رسالة حجاجية فما حدود الانفتاح والانغلاق في استثمار المناطق المحدودة والممتدة أثناء عمليات التأويل؟ كيف تعامل المؤلف مع جدلية سلطة النص وسلطة القارئ و هي تتجلى في ظلال القرآن؟ ما أثر ذلك على استراتيجيات التلقي الجديدة التي أثارها المؤلف وهو يستهدف في ترجمته الظلالية مقاصد تحديد سياقات التلقي في ظل حركة الإنسان المعاصرة؟ ما هي حدود الفعل القرائي التداولي عند هذا المؤلف، وماهي سنداته المعرفية وهو يحاول إيصال رسالته إلى المتلقي؟ ما طبيعة هذا القارئ المقصود؟ كما أنه يطرح قضية مركزية حول انفتاح النص وانغلاقه أي بين سلطة القارئ وسلطة النص ثم الانصراف بالمنهج القرائي تحت أثر الغايات الكبرى التي تصنع إنسانا يكون في مستوى الاستجابة والفاعلية والأثر.

تكمن أهمية هذه المقال في أنه يعرض بعضا من هذا المنتوج الخطابي الذي تشكل وفق حركة فكرية تاريخية ثقافية ذاتية خاصة بالكاتب وهي التي حددت هوية هذا الفكر الذي جمع فيه جملة من المكونات التي أنشأت فعلا قرائيا خاصا بالمؤلف، سماته الأساسية الحجاج والتأويل ليعالج بهما واقع الأمة؛ حاضرها ومستقبلها ومصيرها بصفته مفكرا إسلاميا معاصرا، كما أنها حددت هوية الخطابات التراثية والمعاصرة، فلقد توجه المنتج بخطابه بغاية الترجمة الدلالية لتحقيق الفاعلية والاستجابة، كما أن نص الظلال

[1] في ظلال القرآن، ج/ 4، ص:2038-2039

[2] في ظلال القرآن، ج/ 4، ص:2039

قد خرج وفق سياق محدد هو الذي تحكم بشكل كبير في بناء هذا الملفوظ التفسيري الأدبي الموسوم بخاصية الترجمة الدلالية، وقد استثمر المؤلف الفضاء السياقي بأبعاده التأثيرية التداولية التاريخية والذهاب به نحو كشف حركة الإنسان المعاصر في معركته مع الأخر، فهو يطرح إشكالية وعي الإنسان بحاضره، والكشف عن مقصدية الكتابة من هذا المؤلّف الضخم ((في ظلال القرآن)) الذي كان صاحبه يهدف في كل الأحوال إلى بعث الإحساس بالقرآن الكريم كما تلقاه الأولون،. أما منهج الدراسة فقائم على الوصف وتحليل بعض المقولات الظلالية لسانيا وخطابيا وأدبيا وفنيا ونقديا.

2- المكونات القرائية وآليات التلقي:

2-1- القراءة وفاعلية المكون العملي:

2-1-1- التلقي واستراتيجية بناء الواقع المتجدد:

لقد أراد صاحب الظلال أن تكون مقاربته وترجمته ذات منحنى عملي حركي، وهو عمل انتقل فيه من التلقي التفسيري المعرفي الثقافي إلى التلقي العملي، ويمثل ذلك مكونا أساسيا في القراءة الظلالية، وهذا التصور دفعت به جملة من العوامل على رأسها تلك الفجوة العميقة التي نتجت عن اضطراب في عملية التلقي بين الأمة المعاصرة والنص الرباني بسبب العامل الاستدماري والحاجز التاريخي الطويل، بالإضافة إلى ذلك الخلل الذي أصاب جدلية النص والواقع وغيّر طبيعتها، وانتقال حياة الإنسان من توجيهها والتأثير فيها بتعاليم النص القرآني إلى علاقة القداسة والتبرك والانغلاق به في المكتبات، والاقتصار على الدراسة والتثقيف، وما نتج عن ذلك من هوان وضياع جعل الأمة تعج بلا ضابط ولا دليل، تلهث خلف المناهج الفكرية والنظم السياسية التي أفقدتها أصالة التراث، فضاعت منها ملكة البصيرة. كما يقول المؤلف: "أما نحن اليوم فنتكيف وفق تصورات فلان وفلان عن الكون والحياة والقيم والأوضاع. وفلان وفلان من البشر القاصرين أبناء الفناء"[1]، يريد المؤلف بهذا القول تفعيل نص المكون التراثي النابع من ثقافة الأمة وإنتاجها العقلي والروحي في القيم والرؤى المستمدين من كتاب الله وسنة نبيه محمد-صلى الله عليه وسلم-

يمكن اعتبار النص الظلالي-حسب أهداف صاحبه- مشروع فكر وحركة وعمل، ويقظة نهضة، واستراتيجية بناء واقع جديد للحركة الفعلية والعملية، ونجد هذه الأفكار مبثوثة في ثنايا الظلال تذكيرا وتنبيها، ومن الأمثلة التي تجسّد هذا المنحى ما أشار إليه المؤلف وهو يتناول تفسير الجزء الأول من سورة البقرة "كانت الدروس الثلاثة الماضية في هذا الجزء تدور - في جملتها- حول إنشاء بعض قواعد التصور الإيماني، وإيضاح هذا التصور؛ وتعميق جذوره في نواح شتى. وكان هذا محطّا في خط السورة الطويلة؛ التي تعالج-كما أسلفنا-إعداد الجماعة المسلمة للنهوض بتكاليف دورها في قيادة البشرية "[2].

يقدم الدارس قراءة جديدة للنص القرآني لا تكتفي بالثقافة أو المعرفة أو مجرد العلم بها فقط، وإنما تتحول إلى إنشاء تصور وبناء عقلي ينتج عنهما واقع عملي متحرك يتمدد، ومؤثر في حياة الأمة التي تدين بالمنهج الرباني، فيتحول نص السورة تقريبا إلى خط حركي وفضاء عملي. فبعد قراءة أولية للآيات (261- 284) من سورة البقرة يخرج الدارس من حرفية النص إلى الخط العملي، إلى الدلالات والحقائق" يفيدنا أولا في إدراك طبيعة هذا القرآن ووظيفته، فهو كائن حي متحرك ونحن نراه في ظل هذه الوقائع يعمل ويتحرك في وسط الجماعة المسلمة، ويواجه حالات واقعية فيدفع هذه ويقرّ هذه، ويدفع الجماعة المسلمة ويوجهها. فهو عمل دائب

[1] في ظلال القرآن، ج/4 ، ص:2038

[2] في ظلال القرآن، ج1، ص:304.

وفي حركة دائبة. إنه في ميدان المعركة وفي ميدان الحياة.. وهو العنصر الدافع المحرك في الميدان."[1]، وهذه القراءة تفعل النص التاريخي وهو مكون أساسي في استقراء أحداث السيرة النبوية لبناء التصورات الحركية.

فالنص الظلالي على هذا الأساس لا يتوقف عند تفسير المعنى وشرحه وإنما يتجاوزه إلى المراد، ذلك "أن المعنى هو المحتوى الحرفي للكلام في حين أن المراد هو الرسالة التي يبلغها المتكلم، ويقصد أن يكتشفها السامع لتحدث فيه تأثيرا معينا"[2]، وعلى هذا الأساس ينظر المؤلف إلى القارئ العملي على أنه مفقود بعوامل عدة، ولذلك نراه يدعو إلى هذا الإيقاظ، "ونحن أحوج ما نكون إلى الإحساس بالقرآن على هذا النحو، إلى رؤيته كائنا حيّا متحركا دافعا. فقد بَعُدَ العهد بيننا وبين الحركة الإسلامية، والحياة الإسلامية، والواقع الإسلامي. وانفصل القرآن في حسنا عن واقعه التاريخي الحي، ولم يعد يمثل في حسنا تلك الحياة التي وقعت يوما على الأرض، في تاريخ الجماعة المسلمة، ولم نعد نذكر أنه كان في أثناء تلك المعركة المستمرة هو (الآمر اليومي).. وهو التوجيه الذي يتلقاه للعمل والتنفيذ، مات القرآن في حسنا.. أو نام، ولم تعد له تلك الصورة الحقيقية التي كانت له عند نزوله في حسّ المسلمين."[3]، يدعو المؤلف إلى واقع يجب أن يتشكل وفق منهج القرآن يبدأ أولا من خلال تحديد علاقة القارئ بالنص القرآني وابتعاث تلك الروح الغائبة من النفوس بانتقالها ثانيا من السكون والضمور إلى الحركة المستمرة والمتجددة في عالم البشر.

2-1-2- النص وفاعلية الاستجابة العملية:

يقدم المؤلف من خلال المكونات النصية القرائية منظورا عمليا إذ ينقل به المتلقين من علاقة تقديس الكتاب والتبرك به، والتلقي الجامد إلى علاقة الحركة والفاعلية، والاستجابة العملية، ولذلك فهو يشخص بدءا الحالة المسيطرة والمؤثرة في توجيه العلاقة التواصلية بقوله: "ودرجنا على أن نتلقاه إما ترتيلا منغما نطرب له، أو نتأثر به التأثر الوجداني الغامض السارب! وإمّا نقرأه أورادا أقصى ما تصنع في حس المؤمنين الصادقين منا أن تنشئ في القلب حالة من الوجد أو الراحة أو الطمأنينة المبهمة المجملة.. والقرآن ينشئ هذا كله"[4]، ويضيف محددا طبيعة المرحلة الجديدة مع النص القرآني، ويكشف كذلك عن شروط تحديد مقاصده الغائبة "ولكن المطلوب-إلى جانب هذا كله-أن ينشئ في المسلم وعيا وحياة. نعم المطلوب أن ينشئ حياة وعي، يتحرك معها القرآن حركة في حياة الأمة المسلمة"[5]، وهي رؤية فكرية تأخذ شرعيتها التاريخية من الواقع الذي أنشأه الجيل الأول، وتأخذ مصداقيتها كذلك من الواقع المعاصر كالذي تتحرك فيه الأمم بأفكارها ومناهجها ليس فقط في محيطها بل في العالم كله.

ينقل الظلال القارئ بهذه الرؤية الحركية إلى فضاء فاعلي ومتحرّك، ذلك الفضاء الذي تتحول فيه العلاقة بين القارئ والنص من المعرفة إلى العمل الحركي، إذ يتداخل فيه نشاط النص مع نشاط القارئ في وحدة متزاوجة متداخلة غير قابلة للانفصال، وهذا هو الذي يولد حركة الواقع وحركة الفكر، ولذلك فالنص بهذا المنحى القرائي قد أنتج دائرتين متحركتين تقتضي موافقتهما نجاح وظيفة التلقي على المستووين؛ المعرفي والعمل الحركي، ذلك أنّ هذا المكون يحوِّل النص إلى إنتاج مقولات لها علاقة بالبناء الواقعي، وبذلك يكون النص الظلالي قد ابتعد عن القراءات الإشارية والباطنية والفقهية، وعن تلك التهويمات التي أخرجت النص من وظيفته البنائية

---

[1]- في ظلال القرآن، ج1، ص:304.

[2]- محمد محمد يونس علي، علم التخاطب الاسلامي، دراسة لسانية المناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المدار الاسلامي ط1، 2006، ص:62.

[3]- في ظلال القرآن، ج1، ص:305.

[4] في ظلال القرآن، ج1، ص:305.

[5] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

والعملية والحركية، ذلك أنّ أصحاب الاتجاه الظاهري "يعتمدون في فهم معاني النصوص وأحكامها على التسليم بظاهر ألفاظ النص من دون محاولة التنقيب عن خباياه ومكنوناته"[1]، ولذلك فالمؤلف يمارس الفعل الاختراقي لظاهر النص إلى عمقه ليقف على الانتشار الدلالي وإيحاءاته في المنطقة الأخرى التي لا تُستظهَر إلا بالفعل التدبري التأويلي.

تبين ترجمته لآيات الإنفاق (261-274) من سورة البقرة عن ذلك الفعل القرائي، إذ ينتقل المؤلف من ظاهر النص إلى العالم الذي تصنعه تلك التوجيهات، فالنص الظلالي وبمنهجه القرائي المتميز، هو أحد النصوص التي سعت إلى الوفاء بالحاجات العملية والحركية للمجتمع، "ولكن المطلوب أن ينشئ القرآن في المسلم حياة- نعم المطلوب- أن ينشئ حالة وعي يتحرك معها القرآن، حركة الحياة التي جاء لينشئها. المطلوب أن يراه المسلم في ميدان المعركة التي خاضها، والتي لا يزال مستعدا لأن يخوضها في حياة الأمة المسلمة، المطلوب أن يتوجه المسلم ليسمع منه ماذا ينبغي أن يعمل، كما كان المسلم الأول يفعل، وليدرك حقيقة التوجيهات القرآنية فيما يحيط به اليوم من أحداث ومشكلات وملابسات شتى في الحياة، وليرى تاريخ الجماعة المسلمة ممثلا في هذا القرآن"[2]، هذه القراءة بهذا التصور تزيح المسافة الزمنية والتاريخية بين الجيل الأول في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- والجيل المعاصر ليصير تاريخ القديم والحديث تاريخا واحدا لتفعيل عملية التلقي وفق استراتيجية المكون العملي باعتبار الحدث التاريخي المحقق كأداة من أدوات الحجاج والإقناع.

2-1-3- السياق التاريخي وتداولية مكونات التلقي:

يعمل النص الظلالي ومن خلال صاحبه على إعادة الإنسان المسلم إلى مجد الفكر والعمل والاستجابة والحياة الربانية، ذلك أنّ مقصدية الظلال هي إعادة تحريك عمليات التكوين باستحضار نماذج الجيل الفريد وتحرير العقول من مثبّطات العزائم، ومن عوامل تكريس الفكر الجمودي والانغلاق والاتباع إلى حركة الجوارح وبناء التصور، وتبدو البنيات النصية ذات الدلالة الحركية متجلية في هذا التشكيل النصي المكثف بأبعادها المختلفة؛ اللفظية والعملية والشعورية؛ "متحركا في كلماته وتوجيهاته فيحس حينئذ أن هذا التاريخ ليس غريبا عنه، فهو تاريخه، وواقعه اليوم هو امتداد لهذا التاريخ، وما يصادفه اليوم من أحداث، هو ثمرة لما صادفه أسلافه، ممن كان القرآن يوجههم إلى التصرف فيه تصرفا معينا، ثم يحس أن هذا القرآن قرآنه هو كذلك. قرآنه الذي يستشيره فيما يعرض له من أحداث وملابسات، وأنه هو دستور تصوره وتفكيره وحياته، وتحركاته الآن وبعد الآن بلا انقطاع"[3]، تأتي إشارات الربط الصريح بين الماضي والحاضر والمستقبل لأهميته لتحقيق التواصل الفاعلي بين الأجيال.

تنقل هذه القراءة النص من التلقي المعرفي الثقافي إلى أثر النص في الواقع دلالة وتشكيلا وحركة، وهي عملية تحوّلية من السياق اللغوي إلى السياق التداولي، "و بما أن النص اللغوي أيّ نص مهما كانت طبيعته فإنه عبارة عن نظام من العلامات التي تمتد بينها علاقات مختلفة، وكلما غيّرنا موقعها داخل النسق اللغوي تغيرت دلالاتها وذلك هو السياق اللغوي، أما السياق التداولي أي علاقة النص بمستعمله سواء كان المتكلم أو السامع أو الفضاء الثقافي والمعرفي الذي يربط بنيتها"[4]، وبهذه النظرة ينتقل المؤلف في نصه الظلالي من سياق ما يقوله النص إلى ما يحققه النص، إلى ما يريده النص، وبما أن بؤرة القارئ المتحرك تتكرر كثيرا في هذا النص

[1] محمد بن أحمد جهلان، فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، دار صفحات للدراسات والنشر، ط1، 2008، دمشق، سورية، ص:241.
[2] في ظلال القرآن، ج1، ص:305.
[3] في ظلال القرآن، ج1، ص: 305.
[4] حسين خمري، نظرية النص، من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، ط1، (1428هـ/2007م)، دار العلوم ناشرون، منشورات اختلاف، الجزائر، ص:162.

التمهيدي لآيات الإنفاق، تتكرر كذلك لفظة الحركة ومشتقاتها في النص لتعمل بفعل القوة إلى أن تأخذ طريقها إلى التجذير في النفس والعقل، "وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت بها فوائد، حتى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة، وخلابة مرموقة. ومن خصائصها التي تذكر بها، وهي عنوان مناقبها، أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعا من الثمر."[1]، يحول المؤلف بعض الإشارات إلى دوال منتجة لصناعة القول الحجاجي ولا سيما كما جاء في تأكيده على الحركة التاريخية لعلاقة المخاطبين بالقرآن الكريم وفاعليتها .

2-1-4- شروط الاستجابة العملية وفاعلية التواصل:

شكلت القراءة التمهيدية الظلالية وضعيات اتصالية جديدة، وبذلك تكون قد نظمت رسالة من خلال النص، رسالة يتحقق بها العمق الاتصالي والمقصود الحركي، وعلى هذا الأساس يدخل النص الظلالي بهذا المنهج القرائي في اشتغال فكري جديد، وبناء معرفي وحركي يعملان على إنتاج دلالات معاصرة، تتطلبها المرحلة الراهنة من خلال فعاليات وآليات وكيفيات تشكل تفاعلا جديدا بين النص الأصل والنص الظلالي المنتج والقارئ، إذ يتحقق هذا الاتصال من خلال الأطراف الثلاثة التي تعمل في حركة تداولية شديدة التنقل، ودقيقة البناء، صانعة بذلك فضاء حواريا ثري التواصل، وتدخل في ما يسمى بتصعيد التفاعل بين النص والقارئ، وهي قراءة يزحف فيها الواقع كمرجع أساسي في العملية القرائية والتأويلية، ومن ثم يتحول النص الظلالي إلى راصد لهذا الواقع، وهو يسعى إلى أن "يقول لنا شيئا ما عن الواقع"[2]، وهذا ما يؤكده إيزر حول النص الأدبي فهو عنده "يحمل للعالم شيئا لم يكن موجودا من قبل"[3]، وبالتالي يتسطح المرصود الغائب في ظل هذا البناء التواصلي بين النص والواقع والقارئ، ويصبح النص في حالة اكتشاف وردة فعل على هذا الواقع، إذ أنّ النص، أيَّ نص" يهدف إلى تبليغ ردّ فعل النص على واقعه الخارجي إلى القارئ، أو بالأحرى أنها-أي البنية التواصلية-توفر الشروط الضرورية التي تسمح للقارئ ببناء ردّ الفعل، هذا باعتباره المعنى الذي يقصده النص، ومادام النص لا يشكل ردّ فعله الخاص ولا يصوغه بنفسه، ومادام هذا الأخير ينجم عن التفاعل القائم بين النص والقارئ، فإنه سيكون تاريخيا وبراغماتيا بالضرورة مثله مثل سيرورة البناء التي نجم عنها"[4]، ومن ثم فالنص الظلالي تتقاطع في ثناياه ثلاثة أطراف؛" إذ يتقاطع النص مع واقعه الخارجي وحيث يلتقي مع الذات القارئة"[5]. ومن خلال فاعلية العملية التواصلية بين الأطراف الثلاثة تتحقق الاستجابة العملية.

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، 1988. ص:42-43.

[2] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ص:192.

[3] إيزر(فولفغانغ)، آفاق نقد استجابة القارئ، تر: أحمد بوحسن ضمن: من قضايا التلقي والتأويل، منشورات كلية العلوم والآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم:36، الدار لبيضاء، 1995 ص:213.

[4] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل....ص:192

[5] المرجع نفسه، ص:192.

2-2- القراءة وفاعلية المنظومة الفكرية:

2-2-1- المكون الفكري وإشكالات تحدّيات العصر المتجددة:

تدخل الكتابة عند سيد بوجه عام، وترجمة النص القرآني بصورة خاصة في سياق جدلية النص مع واقع الإنسان المسلم المعاصر من خلال منظومة فكرية، ولذلك نجده يفعّل السياق التاريخي ليبرز الحاجات الفكرية الضرورية لهذه المرحلة، ففي سياق التمهيد لآيات الإنفاق، يشخّص الواقع ويدرسه من خلال تشغيل المنظومة الفكرية، لإدراك حقيقة الإنفاق وآثارها ومواقعها يقول: "إنها تفيدنا في رؤية حقيقة الطبيعة البشرية الثابتة المطردة تجاه دعوة الإيمان وتكاليفها. ورؤيتها رؤية من خلال الواقع الذي تشير إليه الآيات القرآنية في حياة الجماعة المسلمة الأولى. فهذه الجماعة التي كان يتنزل عليها القرآن، ويتعهدها رسول الله-ﷺ-كان فيها بعض مواضع الضعف والنقص التي تقتضي الرعاية والتوجيه والإيحاء المستمر ولم يمنعها هذا أنّ تكون خير الأجيال جميعا، وإدراك هذه الحقيقة ينفعنا، ينفعنا لأنّه يرينا حقيقة الجماعات البشرية بلا غلو، ولا مبالغة ولا هالات ولا تصورات مجنحة! وينفعنا لأنه يدفع عن نفوسنا اليأس عن أنفسنا حين نرى أننا لم نبلغ تلك الآفاق التي يرسمها الإسلام ويدعو الناس إلى بلوغها، فيكفي أن تكون في الطريق، وأن تكون محاولتنا مستمرة ومخلصة للوصول، وينفعنا في إدراك حقيقة أخرى: وهي أنّ الدعوة إلى الكمال يجب أن تلاحق الناس، ولا تفتر ولا تني ولا تيأس إذا ظهرت بعض النقائص والعيوب فالنفوس هكذا، وهي ترتفع رويدا رويدا بمتابعة الهتاف لها بالواجب، ودعوتها إلى الكمال المنشود وتذكيرهم الدائم بالخير وتجميل الخير لها وتقبيح الشر، وتنفيرها من النقص والضعف والأخذ بيدها كلما كبت في الطريق وكلما طال بها الطريق"[1].

يقدم المؤلف مقاربة فكرية بقراءة واقعية، إذ يتحول فيها الفكر إلى واقع متحرك وإلى فكر موجه ومنظم، يعمل على تنشيط المرجعية الفكرية وتفعيل السياق التاريخي المناسب لإشكالات المرحلة، وإيقاظ الآثار الكامنة في النفوس، "و يفيدنا ثالثا في الاستقرار إلى هذه الحقيقة البسيطة التي كثيرا ما نغفل عنها وننساها: هي أنّ الناس هم الناس، والدعوة هي الدعوة، والمعركة هي المعركة، إنها أولا وقبل كل شيء معركة مع الضعف والنقص والشح والحرص في داخل النفس، ثم هي معركة مع الشر والباطل والضلال والطغيان في واقع الحياة. والمعركة بطرفيها لابد من خوضها ولابد للقائمين على الجماعة المسلمة في الأرض من مواجهتها بطرفيها، كما واجهها القرآن أول مرة وواجهها رسول الله-ﷺ-ولابد من الأخطاء والعثرات، ولا بد من ظهور الضعف والنقص في مراحل الطريق، ولابد من المضي أيضا في علاج الضعف والنقص كلما أظهرتهما الأحداث والتجارب، ولابد من توجيه القلوب إلى الله بالأساليب التي اتبعها القرآن في التوجيه، وهنا نرجع إلى أول الحديث، ونرجع إلى استشارة القرآن في حركات جماعتنا وملابساتها وإلى رؤيته يعمل ويتحرك في مشاعرنا وفي حياتنا كما كان يعمل ويتحرك في حياة الجماعة الأولى"[2].

إنّ هذه القراءة تنزل النص إلى تحليل الواقع واستثمار تشكلاته وبنياته الاجتماعية والفكرية والوجودية في ظل إسقاطات فكرية تكشف عن ملابسات العصر وأشكال التدافع والصراع فيه، وتتبنى على أساسها مصطلحات جديدة لتحقيق المشروع الإنتاجي الاتصالي بين الأطراف الثلاثة؛ (النص الأصل/ النص الظلالي/نص القارئ)، "ولكي يستطيع النص توصيل معناه أو موقفه من محيطه الخارجي فإنه يلجأ إلى مجموعة من المعايير والمواصفات والاتفاقات التي تكون سابقة عليه ومعروفة لدى جمهور المتلقين والتي

[1] في ظلال القرآن، ج1، ص:305.

[2] في ظلال القرآن، ج1، ص:306/305.

يستطيع بفضلها أن يخلق وضعية سياقية مشتركة بينه وبين القارئ بحيث يتمكن هذا الأخير من استيعابه"[1]، إذ يعكس النص الظلالي قراءة إبداعية إنتاجية بوظيفية أو مقصدية ذات أبعاد فكرية و واقعية، فهو يقوم "بوصف ما لم يصرح به النص وينوي الوصول إليه"[2]، وبذلك ينتقل النص الظلالي من المعنى إلى استراتيجية المشروع الفكري والرؤية المستقبلية المتقدمة.

2-2-2- النص وفاعلية السياقات المتقاطعة:

إنّ الغاية من تفعيل هذه المواصفات والاتفاقات الضرورية هي إقامة وضعية تواصلية معينة بين النص الأصل والقارئ والنص المنتج (الظلال)، وفي الواقع هي عملية تدفع المتلقي إلى المعايشة والفاعلية والتحرك، وربما نستطيع القول فيها كما ذهب إلى ذلك إيزر "إنها المنطقة المألوفة التي يلتقي فيها النص والقارئ من أجل الشروع في التواصل"[3]، و على هذا الأساس يعمل المفكر على استثمار المحصلات الواقعية، وربما السياقات المشتركة بين النص الظلالي والمتلقي المتحرك التي ترجع إلى "المعايير الاجتماعية والتاريخية وإلى السياق التاريخي الثقافي بمفهومه الواسع الذي يكون النص قد نجم عنه.. إنّ السجل هو الجزء التكويني النصي الذي يحيل بالضبط إلى ما يقع خارج النص"[4]، والمقصود بالسجل هو(علاقة النص بالواقع) وهذا السجل النصي مكون من مجموع العناصر المألوفة، "وهكذا يتضح لنا أنّ العناصر المكونة للسجل النصي تشكل معطيات دقيقة نستطيع التعرف إليها مهما كانت درجة تعقيدها، وأنّها هي التي تحيلنا على الواقع الخارجي للنص أو أفقه المرجعي الذي يتموقف منه ويرد عليه الفعل"[5]، وإذا عدنا إلى النص الظلالي وإلى آيات الإنفاق: (261-274) من سورة البقرة نجد أن المؤلف قد جمع بين السياق التاريخي للنص وحركة الواقع المرصودة، وأنتج على ضوئهما سياقا معاصرا بدلالات وتصورات جديدة كانت غائبة كما صرح.

ويكون بذلك قد حافظ على الأصل، وقال شيئا عن الواقع في سياق نصي جديد، فاكتسب النص الظلالي أبعادا وتصورات بالإضافة إلى إثارة واستظهار الدلالات الفكرية الغائبة، وذلك ما تقوم به العناصر المكونة للسجل النصي،" إنها تشكل الواجهة الخلفية التي نجمت عنها، ونجدها في السياق الجديد، وقد تحررت قدراتها العلاقية، في حين كانت في سياقها الأول مربوطة بوظيفتها الخاصة. إنّ عناصر السجل ليست مطابقة لما كانت عليه في الأصل، ولا لما كانت تستعمل من أجله"[6]، ويعقب عبد الكريم شرفي على ذلك بقوله: "وبهذه الكيفية بالضبط يستطيع النص أن يقول للقارئ شيئا ما عن الواقع"[7]

فالنص القرآني في آيات الإنفاق قد هيأ فضاء للتدبر والاستنباط وفتح للقارئ مساحات ليدرس من خلالها البنية البشرية في كل أطوارها وثوابتها، و كذلك المتغيرات التي تطرأ عليها، كما سمحت بالوقوف على القوانين التي تتحكم في السيرورة الإنسانية وطبيعة الفكرة والحركة، وهذ المعالم لا يقدمها النص الظاهر، وإنما المكونات الثقافية والاجتماعية والواقعية هي التي أنتجت ذلك في سياق

---

[1] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، الدار العلمية للعلوم، دراسة تحليلية نقدية، في النظريات الغربية الحديثة ناشرون، منشورات اختلاف، ط1، (1428هـ/2007م):193.

[2] فولفغانغ إيزر، آفاق نقد استجابة القارئ، ص:222.

[3] روبرت هوليب، نظرية التلقي مقدمة نقدية، ت: عز الدين اسماعيل كتاب النادي الأدبي الثقافي بجده رقم السلسلة 97 /ط1 سنة 1994. ص:208.

[4] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ص:194.

[5] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ص:194.

[6] المرجع نفسه، ص:194.

[7] المرجع نفسه، ص:194.

جديد، إذ اشتغل فيها النص الظلالي على تفصيل عناصرها واستنطاق دلالاتها الخفية، فالدارس لم يقف عند حدود النص الظاهر بل حوّله إلى معايير قانونية وآليات سننية لتحليل الواقع بنماذجه الفكرية السائدة ومفاهيمه وتصوراته، ومن ثمة تصبح الكتابة نوع من امتزاج الأدب بالتصور والفكر، ففي تعقيبه على قوله تعالى: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110) [سورة آل عمران] ، إذ يبدأ أولا بدراسة اللفظة لغويا وتركيبا ثم يحولها إلى مفتاح دلالي حجاجي، "إن التعبير بكلمة (أخرجت) المبني لغير الفاعل، تعبير يلفت النظر، وهو يكاد يشي باليد المدبرة اللطيفة، تخرج هذه الأمة إخراجا، وتدفعها إلى الظهور دفعا من ظلمات الغيب ومن وراء الستار السرمدي الذي لا يعلم ما وراءه إلا الله.. إنها كلمة تصور حركة خفية المسرى، لطيفة الدبيب، حركة تخرج على مسرح الوجود أمة ذات جوّ خاص، لها مقام خاص، ولها حساب خاص"[1].

يبدأ النص بفعل إجلائي لكثير من المثيرات الدلالية التي تقلب تصور الجيل المعاصر وتدخله في نوع من المساءلة الذاتية لإدراك هويته واستظهار مكوناتها الحضارية لينتقل التصور إلى بناء الفكر وربطه بحركة الواقع، "وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة المسلمة لتعرف حقيقتها وقيمتها، وتعرف بأنها أخرجت لتكون طليعة، ولتكون لها القيادة، بما أنها هي خير أمة، والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض، ومن ثم لا ينبغي لها أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية، إنما ينبغي دائما أن تعطي هذه الأمم مما لديها، وأن يكون لديها دائما ما تعطيه. ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح والتصور الصحيح والخلق الصحيح والمعرفة الصحيحة والعلم الصحيح، هذا واجبها الذي يحتّمه عليها مكانها، وتحتمه عليه غاية وجودها، واجبها أن تكون في الطليعة دائما، وفي مركز القيادة دائما ولهذا المركز تبعاته، فهو لا يؤخذ ادعاء ولا يسلم لها به إلا أن تكون هي أهلا له.. وهي بتصورها الاعتقادي، وبنظامها الاجتماعي أهل له، فيبقى عليها أن تكون بتقدمها العلمي وبعمارتها للأرض – قياما بحق الخلافة– أهلا له كذلك .. و من هذا يتبين أن المنهج الذي تقوم عليه الأمة يطالبها بالشيء الكثير، ويدفعها إلى السبق في كل مجال .. لو أنها تتبعه وتلتزم به وتدرك مقتضياته تكاليفه."[2]، تقوم هذه القراءة على النبش في وعي المتلقي وإخراجه من حاضر الغفلة إلى التذكير بالحقيقة الوجودية الغائبة عن طريق عرض القضايا من خلال التدرج المنطقي والتسلسل المتراقي لإقناعه بقدراته على تفعيل المقومات الحضارية والرسالية، وبأنه مؤهل لأدائها على أحسن الوجوه.

إنّ المسلم المعاصر حينما ينظر إلى ما بين يديه من إرث رباني ومجهود نبوي، يشعر بأنه قيّم بذلك، إلا أنّ واقعه المأساوي في كل المجالات يكشف عن فظاعة هذا التناقض، ويصيح بعنف ذلك الفارق الرهيب الشاسع بين ما في يده وبين ما هو منجز ومحقق، وتلك هي مصيبة وبلاء هذه الأمة ونكستها في الوقت الراهن، ولذلك يعمل النص الظلالي على اكتشاف تلك الدلالات وعلى إعادة ربط الحركة الفكرية بالحركة الواقعية، ويتدرج النص في بناء ذلك التصور بناء متسلسلا ومترابطا، "وفي أول مقتضيات هذا المكان، أن تقوم على صيانة الحياة من الشر والفساد.. وأن تكون لها القوة التي تمكنها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي خير أمة أخرجت للناس، لا عن مجاملة ومحاباة ولا عن مصادفة أو جزاف– تعالى الله عن ذلك كله علوا كبيرا– وليس توزيع الاختصاصات والكرامات كما كان أهل الكتاب يقولون: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم

[1] في ظلال القرآن، ج1، ص :487.

[2] المصدر نفسه، ص:447.

بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (18)﴾[سورة المائدة]. كلا! إنما هو العمل الإيجابي لحفظ الحياة البشرية من المنكر وإقامتها على المعروف، مع الإيمان الذي يحدد المعروف والمنكر"[1]، فبهذا الفعل القرائي يعمل المؤلف على بعث سياقات التنزيل لتجديد روح القراءة المنتجة قراءة معاصرة قائمة على استثمار الوحدات اللغوية والمكونات النصية الجديدة، تلك التي تسمح بإنتاج الكثير من الدلالات والإيحاءات والأفكار المثورة.

2-2-3- القراءة الفكرية وتحليل الأنساق الدلالية:

يعمل النص الظلالي من خلال المعالم والمراجع النصية على تحليل العالم من خلال الدلالات السائدة بالإضافة إلى اكتشاف امتدادات دلالية جديدة، " فالنص لا يتموقع بالنسبة إلى واقعه الخارجي الخام، بل يتموقع بالنسبة إلى الأنساق الدلالية باعتبارها نماذج فكرية لفهم وتأويل هذا الواقع. وكل نسق دلالي، باعتباره تفسيرا اختزاليا وانتقائيا لتجربة العالم، يعرف مجموعة محددة ومستقرة من المعايير ومن عادات الإدراك كيفيات التأويل، وسلما خاصا من القيم وأنواعا معينة من الانتظارات.. وسوف تظهر في كل نسق مجموعة من الإمكانات الدلالية السائدة في مقابل مجموع الإمكانات الدلالية الأخرى الممكنة لفهم العالم"[2]

فالنص الظلالي لا يعيد إنتاج الواقع واجتراره، وإنّما يحلّل مكوناته وعناصره المشكلة، ثم ينتهي بتقديم البدائل والحلول من خلال استبعاد تصورات مهيمنة على هذا الواقع وعلى الفكر الإنساني وعلى نمط الحياة، وذلك ما يقوم به النص الأدبي في وظيفته التعويضية، "إنه لا يعيد بأي حال من الأحوال إنتاج الأنساق الدلالية السائدة، بل يرجع إلى ما هو مفترض فيها، وبالتالي إلى ما هو منفي ومقصي، إنه يحيل إلى أفق النسق في حد ذاته وإلى حدوده الخاصة"[3]، إذ يعمل النص في هذا الاتجاه على إعادة ما هو غائب ومغيب في دائرة الغفلة والنسيان وانحلال القيم، حتى وإن كان إعادة إنشاء هذا الأفق النسقي وبعثه وتحريره من النفي والإقصاء بمثابة الغرابة، فما يريد" النص أن يقوله لنا بشأن الواقع أو العالم، هو بالضبط ما تعلّقه هذه الأنساق أو تعطّله لأنها لا تستطيع إدماجه دون أن يزعزعها "[4].

لقد زعزعت المنظومة الفكرية الظلالية بهذه القراءة كثيرا من الأنساق الفكرية والأنظمة الدلالية، وسلكت طريقا بين القبول والرفض، ذلك أنّ النصوص الأدبية في عمومها " تغير على أنساق الفكر وتغيّر بنياتها ووظيفتها..عن طريق إعادة تنظيم العلاقة بين المهيمن والمحايد والمنفي من المعايير"[5]، والنص الظلالي يواجه كثيرا من الأنساق الفكرية، ويعمل على تفكيك بنياتها وإعادة تشكيل قواعدها المعمارية باعتماد المكونات المقصاة، والعناصر المنفية التي أزاحتها المفاهيم الدخيلة والمتراكمة في دوائر الانزياح، ومن ذلك الأنساق الناتجة عن الفكر السطحي للدين وعن رواسب الفكر الغربي المهيمن والمؤثر، ففي نفس موضوع خيرية الأمة وتكاليفها الإيمانية يواصل المؤلف قوله: " وهذا ما يحققه الإيمان بإقامة تصور صحيح للوجود وعلاقته بخالقه، وكذلك الإنسان وغاية وجوده

[1] في ظلال القرآن، ج1، ص:447.
[2] عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، ص:194.
[3] المرجع نفسه، ص:194.
[4] المرجع نفسه، ص:195
[5] ولفغانغ إيزر، آفاق نقد استجابة القارئ، ص:223.

ومركزه الحقيقي في هذا الكون.. ومن هذا التصور العام تنبثق القواعد الأخلاقية. ومن الباعث على إرضاء الله وتوقي غضبه يدفع الناس لتحقيق هذه القواعد، ومن سلطان الله في الضمائر وسلطان شريعته في المجتمع تقوم الحراسة على هذا القواعد كذلك."[1]

تتدرج الأنساق الجديدة نحو الظهور والاندماج من خلال منافذ الأدب وامتزاجها بالفكر لإدخال المتلقي المقصود في عملية بنائية وتكوينية، " ثم لا بد من الإيمان–أيضا– ليملك الدعاة إلى الخير. والآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر، أن يمضوا في هذا الطريق الشاق. ويحتملوا تكاليفه. وهم يواجهون طاغوت الشر في عنفوانه وجبروته، ويواجهون طاغوت الشهوة في عرامتها وشدتها، ويواجهون هبوط الأرواح، وكلل العزائم، وثقلة المطامع.. وزادهم هو الإيمان، وعدّتهم هي الإيمان، سندهم هو الله، وكل زاد سوى زاد الإيمان ينفد، وكل عدة سوى عدة الإيمان تُفلّ، وكل سند غير سند الله ينهار"[2].

يتضح مما سبق دراسته أنّ النص الظلالي يعمل على تشكيل فضاءات اتحاد بين النص المقروء ونص القارئ المتعدد الأوجه، كما أن الفعل القرائي يقتضي تواصلا متجددا في روحه وطرحه، ويفترض كذلك في كل مرحلة وجود قارئ ثالث يكون استمرارا لنص القارئ إنتاجا وتجربة جديدة، ذلك أن القراءة "ليست آلية جامدة داخل الرسالة التي يبثها المرسل بل هي عملية اتحاد وارتباط بين تجربة القارئ وشخصيته ومعارفه والنص وشخصيته ودوافعه"[3]، وربما المقولة الأتية تلخص لنا ماهية وأولية القراءة بأنّها "في الواقع، هي عملية التقاء بين نصين؛ نص القارئ والنص المقروء.. إذا جاز لنا عدّ القارئ من حيث البنية الثقافية المعرفية بمنزلة نص كما عدّه كذلك رولان بارت"[4].

يمكن اعتبار الظلال نص مُنْتَج مؤلف هو نص المفكر من خلال نص مقروء، إذ " يستجيب القارئ في هذا اللقاء لبعض مظاهر النص التي يعرفها أو يعتقد أنه يعرفها وينتج من هذه المعرفة عمل جاد يخلص به إلى التأويل النهائي"[5]، إنّ مشروع سيد القرائي هو نتاج فكرة – وأنّ القرآن أنزل ليقرأ قراءة تجدُّدِية– تجمع بين السياق الثابت والسياق المتغير المناسب للمتلقي المعاصر، وبالتالي فالنص لا يلغي ذاته، ولا يلغي القارئ، وهذه الرؤية وحدها هي التي تفعّل عمليات الأثر والفاعلية ثم الاستجابة المستهدفة بالقراءة، ففي تعقيبه على بعض الآيات من سورة الحشر في قوله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هذا الْقُرْآنَ على جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (21)﴾ [سورة الحشر] بقوله: " ثم يجيء الإيقاع الذي يتخلل القلب ويهزه، وهو يعرض أثر القرآن في الصخر الجامد أو تنزّل عليه.. وهي صورة تمثل حقيقة. فإنّ لهذا القرآن لثقلا وسلطانا وأثرا مزلزلا لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته، فاللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني منفتحا لتلقي شيء من حقيقة القرآن يهتز فيها اهتزازا ويرتجف ارتجافا. ويقع فيها من التغيرات والتحولات ما يمثله في عالم المادة فعل المغناطيس والكهرباء بالأجسام أو أشد.. والذين أحسوا شيئا من مس القرآن في كيانهم يتذوقون هذه الحقيقة تذوقا لا يعبّر عنه إلا هذا النص القرآني المشع الموحى"[6]

[1] في ظلال القرآ، ج1، ص:448.

[2] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[3] فعالية القراءة واشكالية تجديد المعنى في النص القرآني، ص 73.

[4] فعالية القراءة واشكالية تجديد المعنى في النص القرآني، ص: 73.

[5] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[6] في ظلال القرآن، ج6، ص:3032.

ينطوي النص السابق على مجموعة من البنيات النقدية والآليات القرائية ومن ذلك؛ (الإيقاع- الأثر- السلطان- التلقي- الانفتاح- التغيرات – التحولات- التذوق- المشع- الموحى...)، فإنّ هذه البنيات تدل كلها على الاستجابة واللقاء، وآليات يتجسّد بها ذلك المشروع القرائي؛ الاستجابة/الأثر/الفاعلية، وهي آليات إيجابية تدفع نحو قراءة النص قراءة جادّة، ذلك أنّ القراءة لا تكون إلا بنص، والنص لا يكون إلا بقراءة تحقق كيانه، و لاسيما إذا علمنا أن الأمة الخيرة حضارتها؛ حضارة نص في المقام الأول، ذلك " أنه لا يمكن تصور وجود نص بمعزل عن القراءة التي تتناوله، وإذا كان اكتشاف دلالات النص وتأويله وفهمه يبدأ في الوقت الذي يلتقي فيه القارئ بالنص، فإنه يصبح من الصعب جدا أن نتحدث عن نص خارج نوع القراءة التي تتناوله وتمارس عليه، فوجود النص مرتبط بوجود قراءة، ووجود قراءة يترتب عليه على نحو آخر وجود فكرة ومعنى وفهم شخصي للنص"[1]، فهذا اللقاء أو الاتحاد القرائي هو الذي يولد أنساقا جديدة، وينوع من محطات وتجارب اللقاء،" لذا فإننا نرى أن أي مقاربة للنص يجب أن تضع في الحسبان ما تحدثه التأويلات المختلفة للقراءة المتباينة لهذا النص"[2]، فالقراءة بهذا المنهج الفكري المتجدد تحلل الأنساق السائدة وتعالج النظم القديمة وتعيد تشكيلها بعد نقدها وتفكيكها.

3- الآليات الحجاجية واستراتيجية إنتاج المعنى وبنائه:

إن جولة سيد قطب في عالم النقد والأدب واستثماره لمنظومة متنوعة من الآليات القرائية، كل ذلك مكّنه من وضع القارئ في عالم النص والانتقال به من الخارج إلى الداخل، ثم من الداخل إلى الخارج في صورة رائعة من الجمال والأثر الطيب الذي يملأ الواقع فاعلية وحركة ونورا وإشراقا، ففي تعقيبه على قول الله تعالى:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (24)﴾ [سورة محمد] إذ تتجلى تلك الأهداف من هذه المعايشة القرآنية، "وتدبر القرآن يزيل الغشاوة، ويفتح النوافذ، ويسكب النور، ويحرك المشاعر، ويستجيش القلوب، ويخلص الضمير، وينشئ حياة للنور تنبض بها وتشرق وتسير"[3].

يؤدي ذلك اللقاء بين القارئ والنص وظائف عدة، منها الانفتاح والتطهير وبناء حياة جديدة، وإنشاء حركة في النفس والواقع، والاندماج بعالم النص لا يكون إلا بالتريث واستثمار لحظة القراءة المستنيرة الواعية، فالمؤلف لا يقف مع قارئه عند شاطئ النص موجها ودافعا، بل يجول معه مكتشفا ودالا ومساعدا، ولننظر إليه كيف يحلل القضايا تحليلا حجاجيا وبنائيا انطلاقا من خلفية نص الحديث الشريف حول حقيقة الشهيد ذاك الذي يقاتل في سبيل الله بقوله: "ونقف لحظة أمام قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (4) ﴾ [سورة محمد] ، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) ﴾ [سورة محمد]، وفي كلتا الحالتين؛ حالة القتل وحالة النصرة، يشترط أن يكون هذا لله وفي سبيل الله، وهي لفتة بديهية، ولكن كثيرا من الغبش يطغى عليها عندما تنحرف العقيدة في بعض الأجيال، وعندما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص وتنحرف عن معناها الوحيد القويم.. ويحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفتة البديهية وأن يخلّصوها في

[1] فعالية القراءة وإشكاية تحديد المعنى في النص القرآني، ص:74.
[2] فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، ص:74.
[3] في ظلال القرآن،ج6، ص:3297.

نفوسهم من الشوائب التي تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة، وألاّ يلبسوا برايتهم راية، ولا يخلطوا بتصورهم تصورا غريبا على طبيعة العقيدة"[1].

يقف الدارس مطولا عند مثل هذه القيم ليستجلي حقائقها الجوهرية من عالم النص، ويبني على أساسها شبكات دلالية مستوحاة من ذات النص وسياقه اللغوي ليعالج بها أنساق اعتقادية اجتماعية حول حقيقة الشهادة في سبيل الله، "لا جهاد إلا لتكون كلمة الله هي العليا، العليا في النفس والضمير، والعليا في الخلق والسلوك، والعليا في الأوضاع والنظم، والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة، وما عدا هذا فليس لله، ولكن للشيطان. وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد، وفيما عدا هذا ليس هنالك جنة ولا نصر من عند الله، ولا تثبيت للأقدام، وإنما هو الغبش وسوء التصور والانحراف"[2]

تشتغل هذه الشبكة النسقية من خلال القارئ ومن مكوناته النصية، وتعمل على استبعاد منظومة فكرية معتبرة تفتقد إلى السند النصي، كما تستحضر في نفس الوقت منظومة أخرى كانت منفية ومقصاة، بل تعمل الشبكة الجديدة على آلية اللفتات الفكرية والقرائية، يقول مستكملا حديثة عن الآية السابعة من سورة محمد: وهو يقف أمام لفتة تعبيرية تركيبية خاصة في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (7) ﴾ [سورة محمد]، "إن الظّن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر، ويكون سببا فيه وهذا صحيح، ولكن تأخير ذكره في العبارة يوحي بأن المقصود معنى آخر من معاني التثبيت، معنى التثبيت على النصر تكاليفه، فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان، وبين الحق والضلال. فللنّصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة. للنصر تكاليفه في عدم الزهو به والبطر. وفي عدم التراخي بعد والتهاون. وكثير من النفوس يثبت على المحنة والبلاء، ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر و النعماء. صلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر، ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن. والعلم لله."[3]

توحي عبارة: (والعلم لله) بأن عالم النص الداخلي يبقى مفتوحا على دلالات أخرى، وتبقى "سيرورة القراءة بسبب طبيعة النص ذاته الذي لا يمكن إدراكه في كليته دفعة واحدة، لا تضع القارئ في مواجهة النص، بل تقحمه داخل عالم النص، لأنها تفرض عليه الانتقال ضمن وجهات النظر والمستويات الدلالية المختلفة التي تمنحها إياه الأجزاء النصية المتتالية باستمرار في أثناء القراءة، وتدفعه إلى تنسيقها في تشكيل دلالي متناغم ومتماسك"[4]، ذلك أنّ ولوج عالم النص لتحقيق المعطى الجمالي يبقي القارئ مؤطرا بمقصدية النص وغاياته، ولذلك فالنص وضمن نشاطه التركيبي الفعّال "فإنه يسمح للبنية النصية أن تملي شروطها على القارئ في أثناء بنائه للمعنى النصي وتقيده وتتحكم فيه"[5]، إذ يتفاعل القارئ مع أي نص مقروء بتحديد موضعين يشكلان ثنائيات مختلفة في الشكل متوافقة في المضمون؛ (الغامض/ الواضح)، (الغائب/الحاضر)، (الباطن/ الظاهر)، (المتشابه /المحكم)، فالأنواع القرائية أو أنماط (القارئ) التي تناولناها تتحدد من خلال عقد القراءة (protocole de la lecture)، وذلك العقد هو الذي يوجه القارئ من خلال الشروط التي يقترحها وتلك تمثل معالم القراءة، ومنها عنوان الكتاب "في ظلال القرآن"، فالعبارات المتكررة، والكلمات التي يعمل

[1] في ظلال القرآن، ج6، ص:3288.
[2] في ظلال القرآن، ج6، ص:3288.
[3] في ظلال القرآن، ج6، ص:3289.
[4] فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، ص:74.
[5] المرجع نفسه، ص:74.

النص الظلالي على ترديدها هي التي " تمكن القارئ من أن يكتشف في كل نص شبكات دلالية تنظّم بنيته، وقد تنتظم الوحدات التي تكوّن هذه الشبكات بحسب ترادفها وتجانسها، (كلمات متعددة تحيل جميعها إلى موضوع واحد)"[1].

والحقيقة، أنّ هذه الأنماط المتعددة قد أعطت لقراءة النص تفعيلا جديدا من خلال مجموعة النصوص المكونة من الثقافة والفكر والتاريخ والأدب والعلوم المختلفة المكونة لنص القارئ، بالإضافة إلى الفضاءات المنفتحة التي ترتكن ما وراء النص، وهي التي" تسمح باكتشاف تأويلات جديدة وفهم متجدد للنص ومن ثم استمرارية في عملية توليد الدلالات عبر الزمن وتجديد قيمة النص ومكانته في التاريخ"[2]، إذ تسمح تلك المواضيع والمساحات أو الفراغات لنشاط الذاكرة الحيوي بملئها نتيجة الشك والمساءلة القرائية، أو ما تثيرهما التراكيب المنزاحة، ذلك أنه "إذا كانت مواضيع اليقين والوضوح تأسر القارئ وتبهره، فإن مواضع الشك والتشابه والغموض وعدم المقروئية هي فقط التي تثير إبداعه وتحرك ذاكرته الثقافية والفكرية وتفتح بذلك مجالا لتعدد النص"[3].

يكتب المؤلف لقارئ مفترض يتميّز بخصائص التكوين الجمالي والفكري والعملي، حيث تتقاطع مع عناصر هذا التكوين شبكة من النصوص المتراكمة التي تكوّن الذات القارئة، وذلك بالاتكاء على مجموعة من الآليات التي تداول بين النص والقارئ في مساحة من الفضاء الإبداعي، ومن خلال النص الظلالي نجد أنّ المؤلف قد اتكأ على منظومة ثقافية واسعة، وعلى منهج نقدي علمي، وعلى رصيد لغوي ضخم، حسب ما يسمح به التعامل مع النص والقارئ معا، وأنه يدور مع النص بالموسوعة المناسبة التي يتطلبها البرنامج اللغوي المكون للنص، فالنص "يتطلب من القارئ بذل جهد كبير كي يملأ (الفراغات) ويكتشف مواضع عدم التحديد، وهذا لا يعني أن عملية القراءة عملية اكتساب واكتشاف فحسب، بل هي وسيلة تبادل المعرفة وتطويرها بين النص والقارئ على أساس الجدلية المستمرة بينهما، فليس في النص محتوى محدد على نحو قبلي ونهائي، بل يتأسس المعنى ويتشكل في أثناء عملية الاستقبال ذاتها، أي في اللحظة التي بدأ فيها القارئ نشاطه التركيبي لعلامات النص، واندماجه في تحقيق بنيات النص التي يعدّ لها في ضوء المعطيات الجديدة التي تتاح كل مرة"[4]، وهذا لا يكون إلا باستراتيجية موضوعة مسبقا واضحة المعالم القرائية سليمة في تصوراتها وتطبيقاتها الحجاجية لتوليد الكثير من الأفكار والدلالات.

4- تنوع الفعل القرائي وتجديده بين المكونات النصية وسياقات التلقي:

إن تنوع مكونات نصوص الفعل القرائي التي يمتلكها القارئ ويفعلها في السياق الذي يتحرك فيه في علاقة متكاملة متجاذبة لا شك أن هذا السياق ينتج قولا متحركا قابلا للإنتاج والتثوير متمددا وغير متناه، وعلى هذا الأساس فإن النص الظلالي لا يمثل قراءة نهائية، وإنما هو في المقام الأول حلقة لسدّ ثغرة تاريخية في عملية التلقي، وجسر موصل إلى مرحلة ما، ليستجيب القارئ لها تاركا إياه (أي: النص الظلالي) ليمارس تجربة جديدة لها غاياتها وفضاءاتها وعوالمها، فالظلال مقاربة أدبية فكرية حركية جمالية نقدية تواصلية، وهو جهد بشري، ولذلك فالنص الظلالي لا يعدّ قراءة نهائية كما صرح المؤلف نفسه، بل لا يمكن اعتباره قراءة نموذجية مثالية، ذلك "أنّ العلماء الذين وضعوا أسس تفسير القرآن الكريم قديما قد أدركوا، وفق تصورهم وأفقهم المعرفي، أن النص القرآني

[1] فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، ص: 77

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] المرجع نفسه، ص: 77.

[4] فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، ص:79.

إنما أنزل ليقرأ وفق الشروط التي يمليها، ولم يعدّوا في وقت من الأوقات إمكانية وجود قراءة (مثالية) منتهية لقارئ مثالي للنص القرآني، ولم ترد في القرآن آية توحي بإمكانية حدوث قراءة منتهية وفهم تام للنص"[1].

هذا المنطلق هو الذي يفسر ظاهرة التعدد القرائي وتنوعه واختلاف التفاسير في مناهجها وآلياتها الإجرائية، وذلك راجع لموقع القارئ وإمكاناته ووسائله وعلاقته بالنص وموقعه منه، فهناك القراءة الوقفية أي الواقفة على حدود النص، وهناك التساؤليه عن حقيقة النص تركيبا ومقصديه وإيحاء وتأويلا، وهناك موقع القارئ من المتكلم، وقراءة سيد- من قبيل الاستعداد النفسي- تمثل القراءة التجديدية للنص في كل التقاء، أي جدّية التواصل باستعدادات نفسية وإمكانات معرفية جديدة، وبما أنّ كل مقاربة للنص غير نهائية، فلقد كان "سعي العلماء منصبا على تطوير ملكات القراءة ابتداء من المفسرين أنفسهم، ومع تأثير ذخيرة المعايير الاجتماعية والتاريخية في صياغة مبادئ الفهم والقراءة القرآنية، وتأثر الكثير من العلماء بالمذاهب والآراء، إلا أنها ساهمت كل بحسب توجهه، في وضع إجراءات ميدانية تمكن القارئ الفعلي المتخصص من تشييد معنى النص وفهمه"[2].

كانت وظيفة النص الظلالي تصب في هذا الاتجاه، أي في وضع معالم وتقنيات قرائية ومقاربات إجرائية تمكن القارئ من الدنو من النص القرآني، وقد تمثلت تلك القراءات في الهياكل التي كان يشبهها المؤلف بتقنيات الأشواط والجولات والمقاطع، والوحدة الموضوعية، ليقوم القارئ الجوّال بتشييد دلالاتها وملء مراحلها، وتنبيه القراء إلى استحالة وجود قراءة نهائية أو مثالية للنص القرآني يجسد معلما من معالم القراءة، وحلقة من حلقات سيرورتها، في رحلة القارئ الطويلة مع النص القرآني، وعلى أساس هذا المنظور النقدي تنتفي فكرة القراءة النمطية.

تبقى غاية المؤلف من موضوع الدراسة والمقاربة أن تأخذا بعين الاعتبار ملابسات العصر ومستجداته، ولاسيما في قصديته العملية الحركية وغاياتها الحاضرة، ففي تمهيده لسورة الحجر يوضح هذا المنحى القرائي توضيحا جَليًّا في بنيات نصية لها دلالاتها المفتاحية،" ومن هنا تلتقي هذه السورة (سورة الحجر) في وجهتها وفي موضوعها وفي ملامحها مع بقية السور التي نزلت في تلك الفترة، وتواجه مثلا مقتضيات تلك الفترة وحاجاتها الحركية، أي الحاجات والمقتضيات الناشئة من حركة الجماعة المسلمة بعقيدتها الإسلامية في مواجهة الجاهلية العربية في تلك الفترة من الزمان بكل ملابساتها الواقعية، ومن ثم تواجه حاجات الحركة الإسلامية ومقتضياتها كلما تكررت هذه الفترة، وذلك كالذي تواجهه الحركة الإسلامية الآن في هذا الزمان، ونحن نؤكد على هذه السمة في هذا القرآن.. سمة الواقعية الحركية لأنها في نظرنا مفتاح التعامل مع هذا الكتاب وفهمه وفقهه وإدراك مراجعه وأهدافه"[3].

إنه لا يمكن إدراك هذه القراءة العملية بمقاصدها الحركية إلا بإعادة تشغيل السياقات الأولى لنزول القرآن الكريم، وهو شرط أساسي في هذه القراءة كما يقول صاحب الظلال: "إنه لابد من استصحاب الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات الواقعية العملية التي صاحبت نزول النص القرآني.. لا بد من هذا لإدراك وجهة النص وأبعاد مدلولاته، ولرؤية حيويته وهو يعمل في وسط حي، ويواجه حالة واقعة، كما يواجه أحياء يتحركون معه أو ضده، وهذه الرؤية ضرورية لفقه أحكامها وتذوقها، كما هي

[1] فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، ص:88.
[2] فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، ص:93.
[3] في ظلال القرآن، ج4، ص:2121.

ضرورية للانتفاع بتوجيهاته كلما تكررت تلك الظروف والملابسات في فترة تاريخية تالية، وعلى الأخص فيما يواجهنا اليوم ونحن نستأنف الدعوة الإسلامية"[1].

يكاد يشترك في هذه الرؤية الكثير من العلماء والقرّاء المتخصصين، فـ" لقد كان أغلب الشرّاح الكبار أمام النص القرآني وأمام غيره من النصوص يؤمنون بأن العمل يفهم على أساس قابلية المشاركة فيه من قارئ معاصر، يعيش مستجدات عصره، ولا يؤمن بالانغلاق الزمني، على أن النص القرآني ذاته وبطبيعته اللغوية الخاصة لا يترك المجال لمن يفصل بين لغة قديمة ولغة حديثة وبين ماضي وحاضر... فالنص القرآني (الذي ظهر في الفترة نفسها تقريبا) يقف جانب كل قراءة جادة لا تقتحم النص أو تفجره بحسب تعبير أتباع المدرسة التفكيكية بقدر ما تحاوره وتبني المعنى المتجدد مع احترام (الشروط) التي يمليها"[2].

فالقراءة الجادة والضرورية للمرحلة، هي تلك القراءة التي تأخذ السمة الواقعية، لأنها مفتاح التعامل مع النص القرآني، وهي رؤية ضرورية هدفها الفقه والفهم والانتفاع والاستشفاف، قراءة سماها المؤلف اجتهادا جديدا في فقه الحركة " توائم بين السوابق التاريخية للحركة الإسلامية الأولى وبين طبيعة الفترة الحاضرة ومقتضياتها المتغيرة قليلا أوكثيرا"[3]، كما أنها مقاربة سياقية تجمع بين السياق التاريخي وسياق الحاضر، كما يمكن إدراجها في القراءة المتميزة والمتقدمة عن كل قراءة، إذ تبرز تلك المقاربة في جرأة المغايرة وجدّة الطرح وفي التناول المضاد لفكرة الفقه المناسب الذي يستجيب لمقتضيات المرحلة الراهنة، "هذا النوع من الفقه هو الذي تحتاج إليه الحركة الإسلامية الوليدة.. أما الفقه الخاص بأنظمة الدولة وشرائع المجتمع المنظم المستقر، فهذا ليس أوانه.. إنه ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقه الإسلامي، هذا النوع من الفقه يأتي في حينه، وتفصل أحكامه على قدّ المجتمع المسلم حين يوجد، ويواجه الظروف الواقعية التي تكون محيطة بذلك المجتمع المسلم حين يوجد، ويواجه الظروف الواقعية التي تكون محيطة بذلك المجتمع يومذاك"[4]، فمقصديه هذه القراءة هي تفعيل النص القرآني في الواقع مع استحضار واستصحاب السياقات التاريخية ومقابلتها بالسياق المعاصر ومقتضياته وملابساته وحاجاته، وهي إنزال النص من الرفوف إلى الواقع ومن الصدور إلى الحياة المتحركة ومن الأحكام إلى العمل التذوقي وإلى الحركة المستأنفة.

يسترسل الكاتب في بناء فكرة النظرية الفقهية نفسها انطلاقا من واقعية المرحلة زمانا ومكانا دون القفز على الحقائق التي يعايشها المسلم المعاصر؛ "نقول هذه المقالة ونحن على يقين أنه لن يرى هذه الرؤية اليوم إلا الذين يتحركون فعلا بهذا الدين في مواجهة الجاهلية الحاضرة، ومن ثم هم يواجهون أحوالا وملابسات وظروفا وأحداثا كالتي كان يواجهها صاحب الدعوة الأولى – صلوات الله عليه وسلم– إن هؤلاء الذين يتحركون بهذا الدين.. هم وحدهم الذين يفهمون هذا القرآن ويدركون الأبعاد الحقيقية لمدلولات نصوصه. وهم وحدهم الذين يملكون استنباط فقه الحركة الذي لا يغني عنه فقه الأوراق، في مواجهة الحياة المتحركة التي لا تكف عن الحركة! و بمناسبة هذه الإشارة إلى فقه الحركة، نحب أن نقرر أن الفقه المطلوب استنباطه في هذه الفترة الحاضرة هو الفقه اللازم لحركة ناشئة..حركة تهدف إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور.. نحن اليوم في شبه هذا الموقف لا في مثله وذلك لاختلاف

[1] في ظلال القرآن، ج4، ص:2122.
[2] فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، ص: 58
[3] في ظلال الفرآن، ج4، ص:2122.
[4] في ظلال القرآن، ج4، ص:2122.

الظروف بعض الظروف والملابسات الخارجية"[1]، وهذا يمثلا مكونا نصيا أخرا لفهم متطلبات المرحلة الراهنة القائمة على فكرة الأولويات وتدرج القضايا.

5- خاتمة:

– تنطلق القراءة عند المؤلف سيد قطب من المداخل السياقية ومن إجراءات الفعل النقدي الممزوج بمكونات القارئ النصية الحركية الواقعية والرؤية الفكرية والتاريخية، ومن محصلات المقاربات التقابلية الناتجة عن تفكيك المنظومات الفكرية القائمة، والبنى الدينية والثقافية السائدتين، ثم إعادة تشكيل مكونات الرؤية الصحيحة، تلك الرؤية التي تبعث في المفاهيم روحا جديدة، تعطيها خصائص المناورة المضادة للمنظومات السائدة.

– إنّ القراءة الحركية بأبعادها الفكرية والتاريخية والتي تشتغل على قاعدة السياقات ليست في كل الأحوال قراءة تطابقيه شبه مثالية، وإنما قراءة تنظر وتقارب لتخرج بنتائج قد تكون مخالفة لتلك النتائج، لأن الملابسات والحاجات غير متناظرة أو متطابقة كما يقول المؤلف نفسه.

– إن المكونات النصية القرائية هي مكونات خلفية اعتمدها القارئ كأدوات تشخيصية اكتشافية تحليلية ذات مقاصد بنائية إبداعية تستهدف استثارة فاعلية المتلقين لانتقالهم من الاستقبال إلى الحركة والتجاوب الشعوري والعملي.

– تتمثل وظيفة نص القارئ في تثوير النص المقروء عن طريق الترجمة الدلالية بنقل النص اللغوي المكتوب إلى حركة الإنسان في تدافعه مع واقعه المتحرك، وفي هذه الترجمة اصطنع سيد قطب من السياق المعاصر مكونا نصيا ومرجعا أساسيا للمساهمة في تصعيد درجات التفاعل بين القارئ والنص تأويلا وإنتاجا، عاملا على تحقيق العلاقة التواصلية بينهما من خلال تفعيل السياقات المعاصرة واستحضار المكون التاريخي بملابساته.

– إن حقيقة نصوص القارئ ماهي إلا مكونات ذات مرجعية خلفية تتشرب من تراث التفسير بالمأثور ومن السيرة كأحداث وإعادة قراءتها ومن الحقائق التاريخية والمعرفة المعاصرة في ظل حركة مخصوصة، ولذلك وجدنا الكاتب يلتف إلى نصوص الماضي ويتقصى حاضرها ويتطلع إلى اسشرافات المستقبل، وكانت تلك أدوات حاور بها المؤلف النص والمتلقي.

– تتمثل فاعلية المكونات القرائية في تحقيق المشروع البنائي للإنسان المسلم لمواجهة راهن الأمة المتردي وذلك بمعالجة مشكلاتها وعلى رأسها تجديد العلاقة وفاعلية القراءة المنتجة حركة وعملا، وعدم الاكتفاء بمجالات المعرفة والتثقيف أو مجرد العلم العقلي.

– تبقى مكونات نصوص القارئ غير مثالية وليست ثابتة، بل قابلة للتطوير والتثوير، تتحكم فيها عوامل الاستجابة لمتطلبات العصر وحاجات المجتمع الفكرية والثقافية المتغيرة في ظل التنوع والتجديد.

[1] في ظلال القرآن، ج4، ص:2122.

– القرآن الكريم

قائمة المصادروالمراجع:

– إيزر(فولفغانغ)، آفاق نقد استجابة القارئ، تر: أحمد بوحسن ضمن: من قضايا التلقي والتأويل، منشورات كلية العلوم والآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم:36، الدار لبيضاء، 1995

– حسين خمري، نظرية النص، من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، ط1، (1428هـ/2007م)، دار العلوم ناشرون، منشورات اختلاف، الجزائر.

- روبرت هوليب، نظرية التلقي مقدمة نقدية، ت: عز الدين اسماعيل كتاب النادي الأدبي الثقافي بجده رقم السلسلة 97 /ط1 سنة 1994.

– سيد قطب في ظلال القرآن، ج1، طبعة جديدة مشروعة، تتضمن إضافات وتنقيحات تركها المؤلف وتنشر للمرة الأولى، الطبع الشرعية11، 1405هـ /1985م

– سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، ط16، دار الشروق، (1423هـ/ 2002م).

– عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تعليق: محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، 1988.

– عبد الكريم شرفي، من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، الدار العلمية للعلوم، دراسة تحليلية نقدية، في النظريات الغربية الحديثة، ناشرون، منشورات اختلاف، ط1، (1428هـ/2007م).

– محمد بن أحمد جهلان، فعالية القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النص القرآني، دار صفحات للدراسات والنشر، ط1، 2008، دمشق، سورية.

– محمد محمد يونس علي، علم التخاطب الاسلامي، دراسة لسانية المناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المدار الاسلامي ط1، 2006.